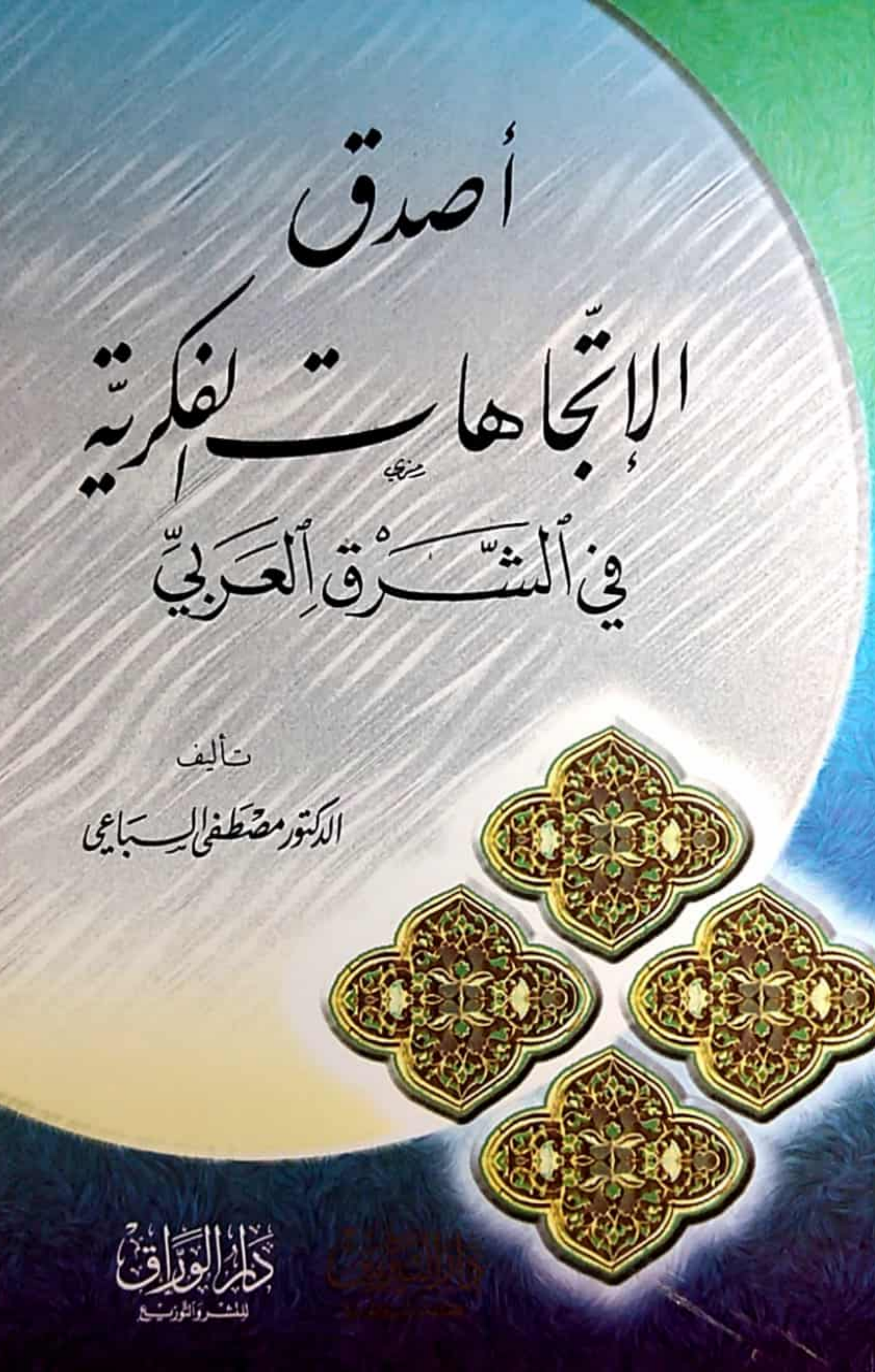
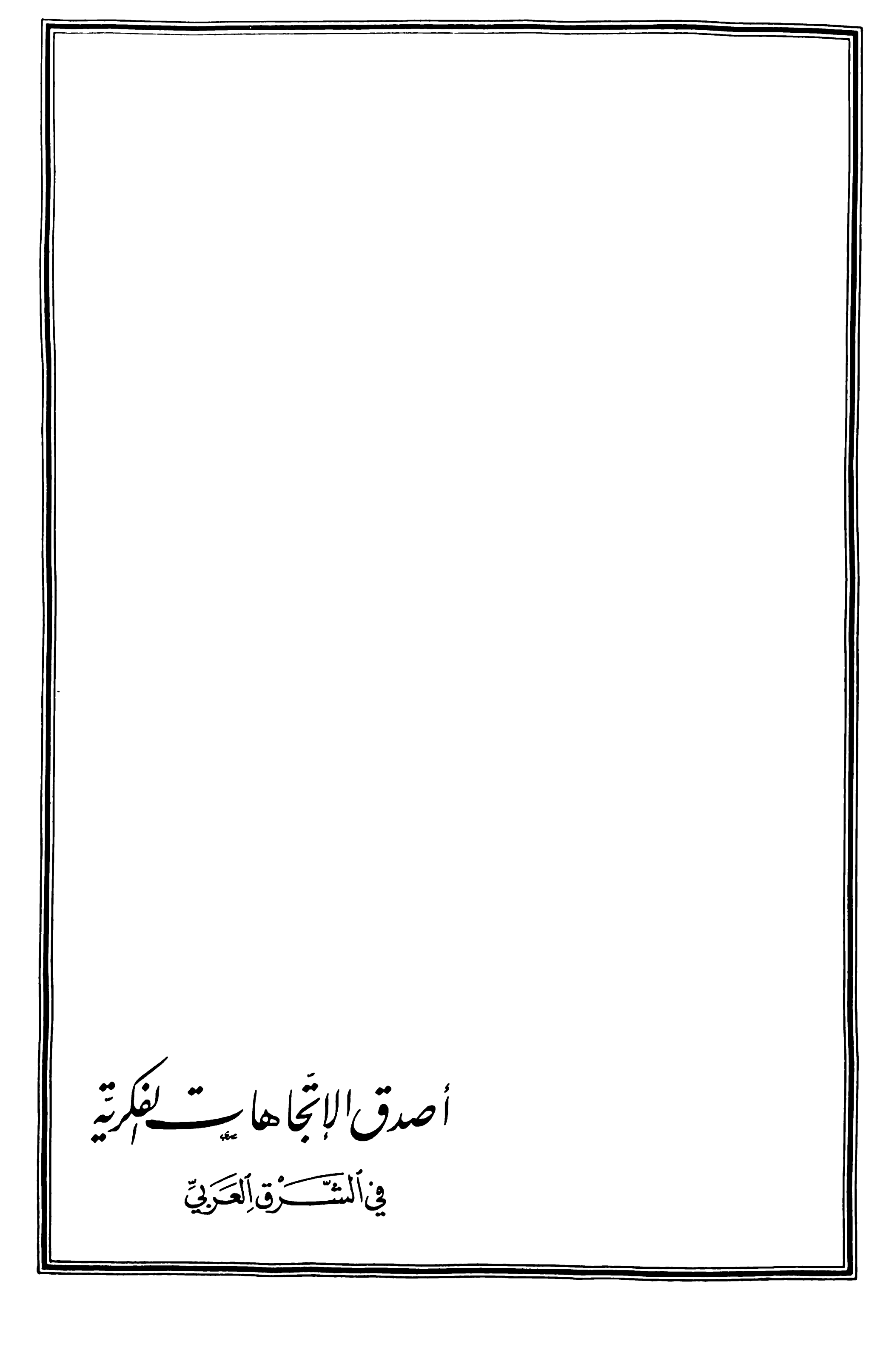
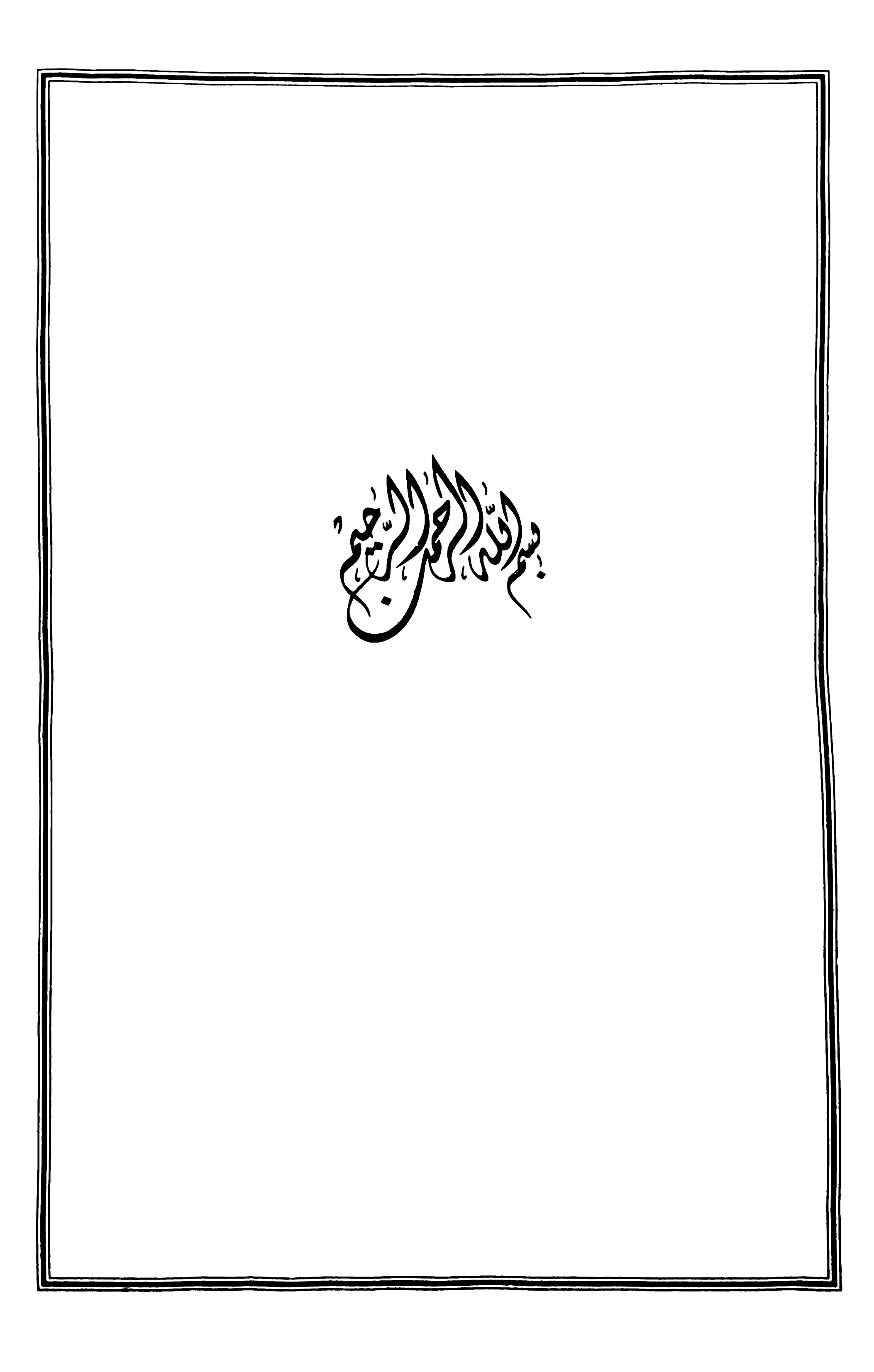

أصدق
الاتجاهات الفكرية
في الشرق العربي
تأليف
الدكتور مصطفى السباعي
دار الوراق
للنشر والتوزيع


أصدق الاتجاهات الفكرية
في الشرق العربي


بسم الله الرحمن الرحيم

أصدق الاتجاهات الفكرية

في الشرق العربي

تأليف

الدكتور مصطفى السباعي





طبع بإذن خطي من ورثة المؤلف

الطبعة الأولى لدار الوراق

١٤١٩هـ - ١٩٩٨م

الطبعة الثانية

١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م



بيروت ـ هاتف وفاكس ٠١/٦٦٤٤٩٩ ـ ص ب: ١٤/٦٣٨٠
E.Mail:msibaie @hotmail.com
E.Mail:warrak @maktoob.com

المملكة العربية السعودية ـ الرياض ـ الرمز ١١٣٩١ ص ب ٦٤١

هاتف : ٤١٦٢٥٢٧ ـ فاكس ٢١٧٠٦٤٢



ص.ب : ٧٦٠٣ ـ دمشق ـ شارع الفردوس
هاتف : ٢٢٣٠٩١٤ ـ فاكس : ٢٢٣٩٩٩٦

بسم الله الرحمن الرحيم
بين يدي الرسالة

في عصرنا الحاضر، عصر النور والعلم والحضارة، يجد أبناء أمتنا الكريمة، ألواناً من الثقافات التي تعرض عليهم، يحيط كل لون من تلكم الثقافات فن من الدعاوة والإغراء، ويجد شبابنا المثقف الواعي أن كل ثقافة معروضة إنما تبشر بمذهب في الحياة وأسلوب في الحكم والتشريع والإصلاح الاجتماعي.

ولقد كان يجب أن يكون في المقدمة، الإسلام بمفهومه الواسع، كحضارة ورسالة تنظم أمر الدين بمعناه التعبدي المحدود وتحكم أمر الدنيا بأساليب نظمها في تنسيق التشريع والآداب العامة والنظام العام، كان يجب أن يكون الإسلام بمفهومه الشامل

لدواء الروح والمادة، بتقدم هذه التيارات الفكرية المتدفقة من الغرب على الشرق تدفق السيل الطامي، ولكن الإسلام من حيث صيغته الموضوعة حتى اليوم يكاد يكون غريباً عن أهله وأبنائه قبل أن يكون مفهوماً من أعدائه والجهال بكنهه، وهذا ما يحدو بكل من فقه شطراً من دينه وفهم ركناً من أركان الإسلام في تشريعه وآدابه وعباداته أن يصب ما فهم في أساليب يسيغها أبناء هذا العصر، وعليه أن يلبسه ثوباً محبباً إلى عقلية القرن العشرين، ليحقق الإسلام فينا معجزته التي أثبتها في سفر التاريخ فخلدت بأسطر من نور مشرقة في سجل أجدادنا الغر الميامين، الذين خدموا دينهم فأبرزوا للناس أجمل مظاهر مرونة الإسلام ويسره، وأحب أحكام القرآن لقلوب الناس كافة، ذلك لأن الإسلام في جوهره، رؤوف بمصالح البشر ضامن لسعادة الإنسانية.

وإن أول ما تشعر به اللجنة الثقافية في جمعية الشباب المسلمين أن عليها مهمة تصوير الإسلام لجميع الطبقات الاجتماعية بوجهه المشرق المرن الناظم لمصالح الفرد الساهر على راحة المجموع.

فنشر مفهوم الإسلام بشكل يجعله محبباً إلى قلب العامل والزارع والتاجر والمثقف هو أول ما تسعى له جمعية الشبان المسلمين من شباب محمد ﷺ.

ولقد مر بالإسلام أناس فهموا منه ما لم يأذن به الله، فضلوا وأضلوا وحسبوا أن الإسلام دين قاصر على العبادة، ثم نظروا للعبادة وحكموا عليها بظواهر أجوالها وحركاتها، وبسطحية أثرها فيمن لا يتعمقون بأدائها وفهمها، فظنوا واهمين أن هذا الدين الذي صلح به أول هذه الأمة لا يصلح به آخرها.

مع أن رسالة الإسلام إنما أحكمها الله لتكون نبراساً للناس كافة، فهي مبادىء اجتماعية عالية لا يأخذ بها شعب إلا سما وارتقى وقوي وازدهر دون تمييز في ذلك بين شعب وآخر، فالنبي عليه الصلاة والسلام ما أرسل إلا رحمة للعالمين، إلا أن الأمة العربية هي أولى شعوب الأرض بتقبل هذه الرسالة الاجتماعية المقدسة وأحراها بتمثلها والسير تحت لوائها حتى تبلغ في مجدها الحاضر ما بلغه أجدادنا البواسل في عزهم الغابر.

ولعل أعمق ما يحز في النفس أن نجد بعض

الأغرار والمخادعين من أبناء هذه الأمة الأبية يولون وجوههم شطر دول أجنبية يتخذون مبدأها لهم ديناً، ورجالها لهم زعماء، وقادتها مبعث فخار وتقديس، مع أنهم لو أخلصوا لماضيهم وكانوا بررة بأمتهم وأمجادهم لاتخذوا من تاريخ حضارتنا المشرق أقوى حافز لضمان مستقبل باهر يقوم على سواعد أبناء أمتنا وحدهم دون ارتكاس في أحضان أمة أجنبية ثانية.

إن في الإسلام لغنية عن كل مذهب آخر، وإِنه باعتباره روح القومية العربية ليتسع لكل طوائف هذا الوطن لأننا عندما نريد الإسلام نريده حضارة شاملة للتشريع والآداب العامة والنظام العام، فهو بهذا المفهوم لا يمنع أحداً من أداء شعائر دينه كاملة، كما كانت الحال أيام كان الإسلام في عزه وتسامحه يوم كان أصدق مثل أعلى في السمو والكمال.

فالجمعية لا تمت بصلة في دعوتها ونشر رسالتها إلى عصبية أو تعصب، ولا تريد إلا أن تبني الأمة نهضتها معتمدة على رسالة الإسلام المستقلة عن أي ركون لنزعة أو أمة أجنبية مستثمرة.

ولعل اللجنة الثقافية في جمعية الشبان المسلمين إذ تتقدم بهذه الرسالة تقوم بجزء صغير من الواجب الإصلاحي العام الذي يجب أن يقوم على أساس الإسلام ويستمد منه كل أصوله ومبادئه.

﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.



وجهتنا في الإصلاح

يجتاز الشرق العربي الحديث طوراً خطراً من أطوار حياته الاجتماعية والفكرية، فقد تنبه بعد رقاد عميق وألفى نفسه في عالم زاخر بالحركة والحياة، ورأى أن له من ماضيه وتراثه ما يبعث على الزهو والفخر والتقدم والنهوض، واستعد للمسير فإذا السبل أمامه مختلفة متغايرة، وإذا الدعاة متعددون متباينون كل يزعم أن طريقه أسلم عاقبة وأقوم محجة. فسار الشرق حائراً لا يدري أي الطرق أحق بالاتباع، وما يزال حتى الآن متعثراً في خطواته يسير في فجاج لا عداد لها وسط صحراء قاحلة ليس بها منارات ولا صوى. على أن هذه الفوضى الفكرية ليست بعجيبة في مثل هذا الطور، فالأمم في بدء نهضتها لا بد من أن تختلف مشاريعها وتتبلبل آراؤها

حتى تثبت لها التجارب والبحوث أقوم المناهج وأنفعها، وإنما الأمر المقلق أن تستمر هذه الفوضى أمداً طويلاً دون أن تهتدي الأمة إلى النهج الذي يجب أن تسير عليه في حياتها المقبلة.

لنستعرض الآن أهم الاتجاهات الفكرية السائدة في المجتمع العربي، وليكن ذلك بإيجاز، فلسنا في مقام التأريخ لها والتحدث عنها بل في مقام التفضيل بينها واستنتاج أصدقها وأسلمها عاقبة.

يرى فريق من الشباب أن تسير الأمة في طريق الحرية الفكرية إلى أقصى مداها فلا تتقيد بدين ولا تعبأ بتقليد، زاعمين أن الدين عائق عن الرقي والتقدم وأن التقاليد جميعها عثرة في سبيل الإصلاح، ويستتبع ذلك رأيهم في النظم الأخلاقية أنها أمور اصطلاحية متعارفة ليس لها حقائق في ذاتها، بل أضفى عليها العرف والبيئة والوراثة ثوباً سابغاً حتى صارت حقائق في نظر الناس وليست هي من ذلك بقليل ولا كثير.

ويرى فريق آخر أن يحصر الدين في المعابد والهياكل فحسب أما الدولة فلا تصبغ نفسها بأية

صبغة من الدين، ولا تتقيد بأي نظام من نظمه، ويزيد بعضهم على ذلك: الدعوة إلى قومية خاصة لكل قطر عربي، فلسوريا قومية وللعراق قومية ولمصر قومية وهكذا...

ويدعو آخرون إلى الثورة على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والدينية ثورة جامحة فلا تبقى على دين، لأنه مخدر الشعوب، ولا على ثورة في يد الأفراد لأنها مثار الظلم، ولا رابطة قومية أو جنسية لأنها تحول دون الرخاء العالمي بما تثيره تلك القوميات من فتن وحروب.

ويؤمن آخرون بوجوب إحياء الشعور القومي في الأمة وتنبيهها إلى خصائصها وأمجادها وذكريات أبطالها. ومن هؤلاء من يتنكر للدين فلا يرى أن يكون من ضمن العناصر التي تبنى عليها القومية العربية جمعاً للكلمة بين عناصر الأمة الواحدة، ومنهم من يعرف للإسلام قدره ولكن لا يذهب إلى مدى بعيد في الأخذ منه.

نستطيع أن نلمح في هذه المذاهب المتعددة في غاياتها وفي وسائلها أمراً جامعاً بين أكثرها وهو

النفرة من الدين وإبعاده عن الحياة العامة وتجاهل القوى الكامنة في نفسية الأمة المستمدة من عقائدها وتراثها وماضيها المشرق الجميل.

في وسط هذه المذاهب الفكرية يرتفع صوت قوي من أعماق نفوس مؤمنة، يدعو إلى اتخاذ الإسلام أساساً لنهضتنا وحركتنا التجديدية، والاستفادة من العناصر القوية التي يفيض بها مجتمعنا الحاضر والتثبت في كل ما نأخذ عن أمم الحضارة فلا نقتبس منها إلا ما ثبت صلاحه واستقام أمره. هذا الصوت القوي الذي بدأ خافتاً ضئيلاً وما زال يقوى وينتشر حتى أصبح بعيد المدى، قوي الأثر، هو صوت الشباب المسلم الحديث، ممن تضمهم رابطة شباب محمد ﷺ. ومما يدعو إلى الاهتمام بهذه الحركة أن القائمين بها شباب نهلوا من معين الثقافتين الإسلامية والأوروبية ودرسوا الحضارتين العربية والغربية، ومن ثم كان حتماً لزاماً أن تنال هذه الدعوة الجديدة حظاً كبيراً من التوسع والانتشار.

على أي الأسس ترتكز الدعوة الإسلامية الحديثة؟

ترتكز هذه الدعوة الجديدة إلى سندين قويين:

الأول ـ أن الإسلام أحدث فيما مضى أكبر انقلاب عرفه التاريخ سواء في محيط العرب الذين نزل عليهم الإسلام أم في محيط غيرهم من الأمم التي دانت به أو خضعت لسلطانه. وإذا كان للإسلام هذا الأثر في قلب أوضاع الجماعات المتفككة، المبعثرة القوى، الفاسدة في عقائدها وأخلاقها، فلم لا نستفيد منه اليوم في القضاء على عيوبنا الاجتماعية التي جعلتنا في مؤخرة الأمم علماً وكرامة وثروة؟

الثاني ـ أن الجماعات لا يمكن أن تعيش بغير دين، كما قرره علماء الاجتماع، وقد قال رينان في

كتابه «تاريخ الأديان»: من الممكن أن يضمحل ويتلاشى كل شيء تحبه وكل شيء نعده من ملاذ الحياة ونعيمها، ومن الممكن أن تبطل حرية استعمال القوة العقلية والصناعية ولكن من المستحيل أن ينمحي التدين أو يتلاشى. وما دام الأمر كذلك فليكن هذا الدين هو الإسلام، لأنه أساس حضارتنا ومجدنا ولأن فيه من الخصائص ما يجعله عظيم الأثر في رفع مستوى الأفراد والجماعات وصيانة كيان الأمة من التحلل والسقوط والفساد.

هاتان هما الدعامتان اللتان ترتكز عليهما الدعوة الإسلامية الحديثة. فلننظر في مدى قوتهما وثباتهما أمام البحث والتحليل.



الإسلام أحدث أكبر ثورة عالمية

من الثابت تاريخياً أن العالم في بدء الدعوة الإسلامية كان مملوءاً بالفتن مستعراً بالحروب التي خضبت وجه الأرض بدماء الأبرياء، وكان الملوك والرؤساء ورجال الأديان يتحكمون في عقول الناس وأبدانهم وأموالهم، وكانت الشرور الخلقية عامة طامة، مما هوى بالإنسانية إلى درك سحيق جعل الحيوانية خيراً منها وأسلم عاقبة. أما العرب فقد كان فيهم ما في غيرهم من تفكك وجهالة ووثنية، مع ما كانوا يتحلون به من صفات فردية ممتازة كالشهامة والشجاعة والكرم وصفاء الذهن وحدَّته وحب الحرية والاستماتة في سبيلها. في هذا العالم المضطرب انبعث صوت الإسلام من صحراء الجزيرة وكان صوتاً قوياً مجلجلاً لم يلبث في عقدين من

السنين أن أحال الجماعة العربية المتأخرة إلى جماعة راقية تحيا حياة جديدة في تفكيرها ومثلها العليا، ثم لم ترض لنفسها أن تظل كما كانت من قبل منزوية عن العالم بل اندفعت من جزيرتها لتحقيق هدف الإسلام في إحداث ثورة عالمية جارفة تتغير معها خرائط وتتبدل بها عقائد وتزول بها دول وحضارات وتقوم على أنقاضها مدنية لم يعرف التاريخ أسمى منها مبادىء ولا أجزل منها خيراً. فالثورة التي أحدثها الإسلام في أمد وجيز جداً ثورة لا نظير لها في تاريخ الحركات العالمية الكبرى.



قدرة الإسلام على رفع مستوى الجماعات

من الثابت لكل من درس طبائع الأمم وأحاط بأسباب نهوضها وانحطاطها أن كل أمة ناهضة لا بد لها لتكون نهضتها مثمرة ثابتة من دعائم أهمها:

١ ـ التحرر من الخرافات والشعوذات وفسح المجال للعقل.

٢ ـ التزود من العلم بأكبر نصيب.

٣ ـ الصحة في الأجسام.

٤ ـ الأخلاق القوية التي لا تبغي ولا تستكين ولا تحلق في أجواء الخيال ولا تسف إلى الواقع الدنيء.

٥ ـ القوة العسكرية التي تحفظ الأمن في

الداخل وترد بغي الأعداء في الخارج.

٦ ـ تربية الضمير الاجتماعي في نفوس الأفراد بحيث يحقق للدولة ما ترجوه من سن النظم وشرع القوانين.

٧ ـ التشريع الذي يحفظ حقوق الناس ويصون مصلحة المجتمع، وييسر للأمة العيش الرغد والأمن الشامل.

هذا ما تحتاج إليه كل أمة ناهضة تود الحياة في ظلال العزة والكرامة، فإلى أي مدى نستطيع أن نعتمد على الإسلام في تحقيق هذه الحاجات؟

الحق أن الإسلام زاخر بالتعاليم التي تذهب إلى أبعد غاية في تحقيقها إن عرف القادة كيف يفهمون روحه وكيف يبثون في الأمة تعاليمه.

١ ـ الإسلام والعقل وموقفه من الخرافات:

الإسلام يكبر من شأن العقل أيما إكبار ويعتمد عليه في إقناع الناس بصدق مبادئه، فالبراهين التي تثبت للناس عقيدة الإيمان بإله واحد ـ وهي أساس عقيدة الإسلام ـ براهين عقلية بحتة، والطريق التي

سلكها القرآن لإثبات ذلك هي طريقة الاستدلال العقلي والنظر الفطري. وكثيراً ما تنتهي آيات القرآن بمثل هذه المقاطع: أفلا تعقلون. أفلا تدبرون. لعلكم تذكرون، ومن هنا اتفق علماء الإسلام أن الإيمان المقبول ما كان عن علم وبرهان لا عن تقليد وإذعان واختلفوا في الإيمان المقلد أيصح منه أم لا؟

ولقد نعى الله على أقوام يتبعون آباءهم في عقائدهم دون أن يستعملوا عقولهم ووبخهم أبلغ توبيخ: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَاۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾.

وفي بعض الآثار: تفكر ساعة خير من عبادة سنة. فما دام الإسلام يرفع من شأن العقل إلى هذا الحد، كان طبيعياً أن يشن على الخرافات والأباطيل حرباً شعواء لا هوادة فيها، فهو ينهى أن يتبع الرجل أو يعتقد ما لم يقم عليه برهان قطعي ثابت: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ والعلم المطلوب في

هذه الآية هو الاعتقاد اليقيني الثابت المطابق للواقع عن دليل وبرهان. وهو يكافح الخرافات في شتى صورها، من عبادة الأوثان التي هي رأس الخرافات والأباطيل إلى الكهانة والسحر والطيرة والاستقسام بالأزلام وما أشبه ذلك مما كان ذائعاً عند الأمم القديمة ولا يزال قسم كبير منه حتى الآن عند الأمم الحديثة ذات المدنية والحضارة. ومن أروع ما يؤثر في هذا الباب عن رسول الله ﷺ أن الشمس كسفت يوم مات ولده إبراهيم فظن الناس أنها إنما كسفت من أجله فأنكر ذلك رسول الله ﷺ أي إنكار تحريراً للعقل من رق الخرافات والأوهام وقطعاً لدابر الشعوذة والتدجيل في أوساط العامة.

ذلك هو موقف الإسلام من العقل ومحاربته للأوهام والأباطيل، فلا نستغرب بعد ذلك إذا رأينا الفكر العربي الذي كان يرضى في الجاهلية أن يعبد حجراً لا يضر ولا ينفع يتسامى بعد الإسلام فيتطلع إلى معرفة دقائق التشريع وحكمة آدابه وفرائضه.

٢ ـ الإسلام والعلم:

والإسلام الذي يكافح الخرافات ذلك الكفاح

الجريء الصريح، يعلم أن أول عامل في مكافحة الخرافات من عقول الأمة، إقبالها على العلم إقبالاً شاملاً لشتى نواحيه، فلم يأل جهداً في الحث على العلم والترغيب فيه. وهو لا يخص ذلك بعلم دون علم بل كل علم تحتاج إليه الأمة وجب أن يكون فيها من يتعلمه بما يسد حاجتها إليه، ولقد أحصى بعض العلماء الآيات التي تلفت أنظار الناس إلى أسرار الكون وتحثهم على استجلاء غامضها فبلغت خمس آيات في القرآن. وكثيراً ما شاد القرآن بفضل العلم والعلماء: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ونوه بسمو مكانتهم وعلو منزلتهم: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ وقصر تعقل الآيات والأمثال عليهم: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ وليس هذا كل شيء بل في حديث رسول الله ﷺ ما يجعل المداد الذي ينفقه العالم في تسويد الصحف وتأليف الكتب أرجح عند الله من دم الشهيد مع أن دم الشهيد هو في نظر الإسلام أزكى دم يراق على تربة الوطن: (يوزن يوم القيامة مداد العلماء ودماء الشهداء فيرجح مداد العلماء على دماء الشهداء).

كان لموقف الإسلام من العلم هذا الموقف الجميل أن اتجهت أنظار العرب الفاتحين إلى الإحاطة بكل ما عند الأمم من ثقافات ومدنيات، فلم يمض عليهم أمد طويل حتى كانوا أرقى الأمم ثقافة وأوسطها علماً. قال دريبر: «إن العرب بعد وفاة النبي بست سنين شرعوا يطلبون العلم حين افتتحوا الإسكندرية فلم يدعوا فرعاً من فروعه إلا حذقوه وصاروا أئمته».

وبلغ التخصص بعلمائنا حداً يشبه تخصص علماء اليوم أو يفوقه، فهذا عالم من علماء اللغة ينفق من عمره ثلاثين سنة في جمع شتات اللهجات العربية وتتبعها من أفواه القبائل العربية. وهذا إمام اللغة الأصمعي يخرج في رحلة علمية إلى بعض القبائل العربية فينفق خمسة عشر دواة من الحبر في تسويد الصحف وجمع المعلومات. وهكذا نرى العناية البالغة في شتى فروع العلم، بينما كانت الأمم تنظر بعين الإجلال والإكبار إلى من يحسنون فيها كتابة أسمائهم أو قراءة بضعة سطور في رسالة عادية. وما كان أقل هؤلاء يومئذ بين جماهير

الشعوب الغارقة في بحور الجهالة والأمية!..

٣ ـ الإسلام والصحة والرياضة:

والإسلام الذي وقف من العلم هذا الموقف العجيب في تاريخ الدعوات، قدر حاجة الأمة إلى الأجسام الصحيحة لتتزود وتنتفع به. فحث على الطهارة والنظافة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ﴾ وأوجب الوضوء والاغتسال ورغب في السفر: «سافروا تصحوا» وفرض الحج على كل مستطيع، وحث الآباء على تعليم أبنائهم كل فنون الرياضة المتعارفة حينذاك: «علموا أولادكم السباحة والرماية وركوب الخيل» بل إن رسول الله ﷺ كان القدوة الحسنة في ذلك فهو يسابق عائشة ويصارع ركانة ويغتسل ويتطيب وينهى عن إجهاد النفس في العبادة لئلا تنقطع عن أداء الواجب: «إن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى» ويقول لمن بلغه عنه المبالغة في العبادة: «ألم أخبر يا فلان أن تقوم الليل وتصوم النهار؟ قال: بلى يا رسول الله، قال: فلا تفعل ولكن قم ونم وصم وأفطر فإن لنفسك عليك حقاً وإن لأهلك عليك حقاً» وما أروع قوله عليه

الصلاة والسلام: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف». ولما دخل المسلمون مكة في عمرة الحديبية وبدأ الرسول ﷺ بالطواف حول البيت كانت قريش تنظر إليهم من هضاب مكة فاضطبع رداءه وأمرهم بالهرولة وقال: «**رحم الله امرءاً أراهم اليوم قوة في نفسه**».

٤ ـ الإسلام والأخلاق:

ولا ريب أن قوة الأجسام وسعة المعارف قد يكونان في الأمة أداة شر إن لم يزنهما خلق فاضل وتربية مستقيمة. والأخلاق في الإسلام وسط بين الإفراط والتفريط. وتقريب بين المثل الأعلى والواقع، وانسجام بين العقل والغريزة، قوة مع رحمة، حكم مع عدل، كرم مع اقتصاد، تواضع مع عزة، مساواة مع تسامح، لين مع حزم، تشاور مع عزم، صفاء مع حذر. وهكذا كان النظام الأخلاقي في الإسلام هو النظام الوحيد الذي استطاعت الأجيال البشرية أن تتخلق به فتحتفظ بالسمو والحياة في آن واحد من بين جميع النظم الأخلاقية التي وضعها الفلاسفة والمتشرعون.

٥ ـ الإسلام والجيش:

العلم والصحة والخلق الفاضل إن لم تدعمهما قوة مادية تتكافأ مع حاجة الأمة وأوضاعها السياسية والاجتماعية كانت عرضة للزوال في أي وقت يشاء خصوم الأمة الأقوياء أن يبسطوا عليها سلطانهم أو يبثوا الفوضى والاضطراب في صفوفها. ولهذا شرع الإسلام إعداد القوة وأوجب التهيؤ للنضال، ولا أود الإفاضة في موقف الإسلام العسكري. وحسبي أن أسرد لكم آيتين من كتاب الله تبينان الغاية من إعداد القوة وشرعها: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾﴾.

ولقد كان فريق من الجاهلين أو المتعصبين يعيبون على الإسلام شريعة الاستعداد والجهاد حتى كانت أول الدروس التي ألقت علينا هذه الحرب وأخذناها من كفاحنا ربع قرن في سبيل التحرر

والاستقلال أن كل نهضة في الأمة إن لم يكن من ورائها جيش وعَلَم ودولة هي كبناء على الرمل تكفي عاصفة هوجاء لتجعل عاليه سافله.

٦ ـ الإسلام وتربية الضمير الاجتماعي:

كل ما سبق من الدعائم لا تؤتي ثمارها ولا تحقق تمام الفائدة منها إن لم يكن في نفوس الأمة ضمير اجتماعي يقيم الحواجز المنيعة بينها وبين استعمال تلك الدعامات فيما يقضي على أمن الوطن وسعادته وانتظام شؤونه.

فالعلماء إن لم توجب عليهم ضمائرهم الإخلاص في سبيل العلم والتفاني في تعليم الأمة كان من أيسر الأمور عليهم أن يستغلوا علمهم في السلب والنهب أو الغش والتدليس!

والأصحاء إن لم تحتم عليهم ضمائرهم أن يستغلوا صحتهم فيما يفيد أمتهم أدت بهم إلى اللهو والعبث أو البغي والأذى!

والخلق المستقيم إن لم يصحبه ضمير حي يرجح مصلحة الجماعة على مصلحة الفرد انقلب

إلى أنانية خبيثة خفية تحمل صاحبها على التفريط بحقوق المجتمع من حيث لا يظن الناس به إلا كل خير واستقامة.

والقوة التنفيذية إن لم يحسن استعمالها وتوجيهها رجال ذوو ضمائر يقظى حملتهم على الكبر والغرور، وأغرتهم بالتجاوز على سلطان الأمة وحقوق الأفراد!

لا بد للأمة من أن يغرس فيها الوازع الاجتماعي الذي ينصف كل إنسان من نفسه ويجعل له حاكماً من ضميره. وليس أبعث على تثبيت هذا الوازع من مثل هذه التعاليم التي فاضت بها سور القرآن: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ﴾.

أين تفر من إقامة الحق؟ احتل على القانون بما تشاء فهنالك العين التي لا تغمض عن شيء! وتظاهر بالخير مهما أردت فهنالك العلم الذي ينفذ إلى خلجات نفسك ورغباتِ قلبك، وأسرف في

استعمال كل قوة فهنالك اليوم الذي يؤتى فيه بالمجرمين أذلاء مكبلين بالحديد والقيود، يوم تشهد عليهم أيديهم وأرجلهم بما كانوا يكسبون.

لقد فشل الفلاسفة أن يثبتوا الوازع الاجتماعي في النفوس كما تثبته هذه التعاليم، ولقد عجزت الآداب والفلسفة والأخلاق النظرية أن تخفف من عبء المحاكم بقلة المتخاصمين، ولكن الإسلام استطاع أن يجعل عمر بن الخطاب يجلس للقضاء في عهد أبي بكر سنة فلا يختصم إليه اثنان!

٧ ـ الإسلام والتشريع العادل:

وأما التشريع الذي تتطلبه نهضة الأمة، فما يخالفنا كل من درس الإسلام دراسة هادئة منصفة أنه تشريع متين الدعائم، غزير المادة، بعيد النظر، متماسك الأجزاء يضع لكل داء دواء، ولكل مشكلة حلاً، وهو مع هذا لا يضيق بإصلاح ولا ينبرم بتطور طبيعي نافع. والمشاكل الكبرى التي تشغل بال العالم اليوم كمشكلة الثروة وتوزيعها والمرأة ووظيفتها والحكم وشكله، والتربية وأسسها، هذه المشاكل وغيرها فصل الإسلام فيها برأي حاسم، لو

وجد من يطبقه في الأمة لوفر عليها كثيراً من الجهود الضائعة وأغناها عن عديد من التجارب القاسية وعصمها من سيئات الفوضى والبلبلة التي تعانيها أكثر الشعوب ممن لم تتعرض عقائدها لحل هذه المشكلات. وليس الآن مجال الإفاضة في حلول مشكلاتنا الكبرى فذلك مما نعرض له في بحوثنا المقبلة، ولكني أقتصر على ذكر بعض شهادات لكبار علماء الفكر ممن لا يظن أن فيهم عصبية للإسلام، ولا مجاملة لأهله.

يقول سبنسر واضع علم الاجتماع:

إن شريعة الإسلام تحتوي على أحكام عقلية عجيبة، ولا يمكن أن يكون شيء في الوجود أحسن منها رجحاناً في فضل الأحكام كلها.

ويقول البحاثة الأميركي (هو كنج) أستاذ الفلسفة بجامعة هارفرد في كتابه روح السياسة العالمية:

«إن سبيل تقدم الممالك الإسلامية ليس في اتخاذ الأساليب الغربية التي تدعي أن الدين ليس له أن يقول شيئاً عن حياة الفرد اليومية وعن القانون

والنظم السارية. وإنما يجب أن يجد المرء في الدين مصدراً للنمو والتقدم. وأحياناً يتساءل بعضهم عما إذا كان نظام الإسلام يستطيع توليد أفكار جديدة وإصدار أحكام مستقلة تتفق وما تتطلبه الحياة العصرية؟ فالجواب عن هذه المسألة هو: أن في نظام الإسلام كل استعداد داخلي للنمو لا بل إنه من حيث قابليته للتطور يفضل كثيراً من النظم المماثلة. والصعوبة لم تكن في انعدام وسائل النمو والنهضة في الشرع الإسلامي، وإنما في انعدام الميل إلى استخدامها، وإنني أشعر بكوني على حق حين أقرر أن الشريعة الإسلامية تحتوي بوفرة على جميع المبادىء اللازمة لنهضتها».

ويقول الأستاذ شيرل الكاثوليكي المذهب وعميد كلية الحقوق بجامعة فينا في مؤتمر الحقوقيين سنة ١٩٢٧:

إن البشرية لتفخر بانتساب رجل كمحمد إليها، إذ أنه رغم أميَّته استطاع قبل بضعة عشر قرناً أن يأتي بتشريع سنكون نحن الأوروبيين أسعد ما نكون لو وصلنا إلى قمته بعد ألفي عام».

ويقول أشهر كتاب العصر الحاضر برناردشو في رسالة له بالإنكليزية «نداء للعمل»:

«لقد كان دين محمد موضع تقديري السامي دائماً، لما ينطوي عليه من حيوية مدهشة، لأنه على ما يلوح لي، هو الدين الوحيد الذي له ملكة الهضم لأطوار الحياة المختلفة، والذي يستطيع لذلك أن يجذب إليه كل جيل من الناس... وأرى واجباً أن يدعى محمد منقذ الإنسانية، وأعتقد أن رجلاً مثله إذا تولى زعامة العالم الحديث نجح في حل مشكلاته وأحل في العالم السلام والسعادة، وما أشد حاجة العالم اليوم إليهما».

ويقول أرموند يورك:

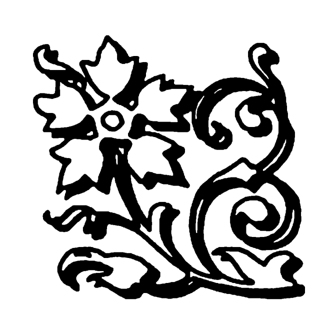
«إن القانون المحمدي قانون ضابط للجميع، من الملك إلى أقل رعاياه، وهو قانون نسج بأحكم نظام حقوقي وأعظم قضاء علمي وأعظم تشريع منور لم يسبق قط للعالم إيجاد مثله».

هذه شهادات استكثرنا منها في الاستشهاد على سعة التشريع الإسلامي ورقيه وانتظامه لشتى شؤون الحياة، رجاء أن يسمعها أولئك الذين لا يشكون إلا

إن شكت أوروبا ولا يؤمنون إلا إذا آمنت، فلعلهم، يحسنون ظناً بالإسلام وهم أبناؤه الأقربون كما أحسن به الظن أولئك العلماء المنصفون!

أيها السادة: إذا ثبت أن للإسلام هذه القوة على إحداث الانقلابات، في الماضي والحاضر، وإشادة صروح النهضات وحل أعقد المشكلات، كانت الدعوة إليه الآن في أمة كأمتنا، المضطربة في نظمها وآدابها وأوضاعها، المتحفزة للنهضة والعمل والتحرر، أجل خدمة تقدم إليها وأقرب طريق تحمل عليه.

وبذلك وثق شباب محمد ﷺ وآمنوا، وإلى ذلك دعوا وجاهدوا، ولكنهم ما كادوا يمضون في طريقهم خطوات، حتى ارتفعت أصوات من هنا وهناك، تثبطهم عن المسير، وتتهمهم بضلال السعي، وجمود التفكير!



الاعتراضات الموجهة إلى الدعوة الإسلامية الحديثة

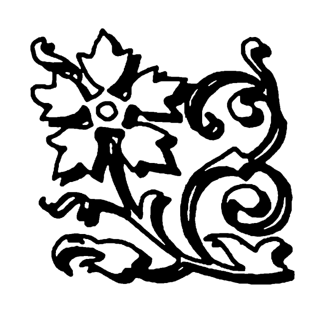
١ ـ قال قائلون: إن العقلية الحديثة لم تعد تستسيغ الدين، ولم تعد تراه مؤتلفاً مع رقي الإنسانية وتقدمها. فالدعوة إلى الإسلام الآن دليل على تفكير ساذج قديم، ورجوع بالأمة إلى حياة القرون الوسطى.

٢ ـ وقال آخرون: إن أوروبا قد غزتنا في عقر دورنا واستولت على مختلف ميادين النشاط في مجتمعنا، فلا بد من أن نجاريها في مضمار الحضارة لننتزع منها السيطرة والنفوذ، ولا بد أن نسلك السبل التي سلكتها للوصول إلى هذه القمة الباذخة من السؤدد والسلطان. ومما لا ينكره أحد أنها لم تبلغ ذلك إلا يوم اطرحت رداء الدين،

وتخلصت من سلطة رجاله، فعلامَ يراد بنا أن نكبّل بالقيود التي لم تقم المدنية الحديثة إلا على تحطيمها؟

٣ ـ وقال كثيرون: إن الدعوة إلى الدين اليوم، تثير في الناس نعرات وعصبيات، تؤدي إلى الخصام والنزاع، بل ربما أدت إلى الفتن والحروب، فما أغنى الأمة عن استعمال السلاح الخطر المزعج، وما أولاها بالانعتاق من أثره وسلطانه، لتسير في موكب المجد والنور يداً واحدة وصفاً واحداً؟!.

هذا ما يعترض به المعترضون على دعوتنا التحريرية الفتية، فما مبلغ ذلك من الحق والصواب؟.



هل العقلية الحديثة لا تأتلف مع الدين؟

من ضلال الرأي السائد في أوساط الشباب أن الدين وراثة تقليدية عن الآباء والجدود لا تحتمه الفطرة ولا توجبه واقعات الحياة. وبديهي أن نقول أن هذا صدى للموجة المادية التي اكتسحت أوروبا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، والتي جعلت للإلحاد سوقاً رائجة ودعاة متضافرين، ولكن العقل العلمي الفلسفي في القرن العشرين أخذ يتحرر من فلسفة المادة الضيقة، وتأثير أدبائها وفلاسفتها عليه، وقام يحمل معاول الهدم في بنائها الشامخ، ليأتي عليه من قواعده، وقد كاد يبلغ من ذلك أرباً، حتى ليذكر الكاتب الإنكليزي مؤلف كتابه «فلسفة المحدثين والمعاصرين»: إن تقارب العلم والفلسفة

والدين ظاهرة من ظواهر الحركة الفكرية في العصر الحاضر.

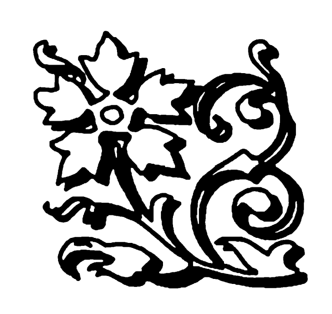
والعقل الحديث اليوم، بعد أن تحرر من رق الفلسفة المادية، يؤمن تمام الإيمان أن التدين لازم من لوازم الحياة لا تستقيم نظمها ولا يصفو كدرها إلا في ظلاله.

يقول هيلار بيلوك: «إن أوروبا ستعود إلى الإيمان أو تتلاشى».

ويقول أجوست سباتييه في كتابه «فلسفة الدين»: «لماذا أنا متدين؟ إني لم أحرك شفتي بهذا السؤال مرة إلا وأراني مسوقاً للإجابة عليه بهذا الجواب، وهو: أنا متدين لأني لا أستطيع غير ذلك، فالدين لازم معنوي من لوازم ذاتي. يقولون: ذلك أثر من آثار الوراثة أو التربية أو المزاج فأقول لهم: قد اعترضت على نفسي كثيراً بهذا الاعتراض نفسه ولكني وجدته يقهر المسألة ولا يحلها، وإن ضرورة التدين أشاهدها أكثر قوة، في الحياة الاجتماعية البشرية فهي ليست أقل تشبثاً مني بأهداب الدين»، إلى أن قال: «وإذن فالتدين باق وغير قابل

للزوال، وهو فضلاً عن عدم نضوب ينبوعه بتمادي الزمن نرى ذلك الينبوع يتزايد اتساعاً وعمقاً تحت المؤثر المزدوج من الفكر الفلسفي والتجارب الحيوية المؤلمة».

فالعقل الحديث عقل مؤمن، والنفسية الحديثة تميل إلى التدين وتقبله، ولكنها تشترط في الدين ليكون متفقاً مع وجهتها العلمية وحياتها الواقعية أن تتحقق فيه عدة شروط:



الشرائط التي تتطلبها العقلية الحديثة من الدين

١ ـ أن يكون ملائماً للفطرة، غير مصادم للعقل.

٢ ـ أن لا يقوم حجر عثرة في سبيل امتداد سلطان الحضارة.

٣ ـ أن لا يحظر على الناس استعمال ما تميل إليه نفوسهم من متع الحياة مما لا يضر بالفرد أو المجتمع.

٤ ـ أن لا يكون فيه من التكاليف الكثيرة ما يحول دون أعمال الحياة أو يوقع في الضيق والحرج.

٥ ـ أن يكون مراعياً مصلحة الجماعة عاملاً

من عوامل الاستقرار والطمأنينة فيما بينهم.

والإسلام بلا شك قد استوفى هذه الشروط على أتم وجه وأكمله وإليكم البيان:

الإسلام والفطرة:

الإسلام دين الفطرة الصافية التي لم تلوث بما يفسد نقاءها وصفاءها وفي ذلك يقول الله تعالى في كتابه:

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

ويقول عليه الصلاة والسلام: «**كل مولود يولد على الفطرة**».

ومن درس تفاصيل الشريعة وأحاط بأسرارها تجلت له هذه الحقيقة سافرة بينة، وهل بعد موقف الإسلام من العقل ومحاربته للخرافات والأضاليل ذلك الموقف الذي تحدثت به آنفاً، هل بعد ذلك دليل على قرب الإسلام من طبيعة الإنسان وفطرته؟ ومن أبرز ما يدل على مسايرته للفطرة موقفه من متع الحياة؟!..

الإسلام والحضارة:

والإسلام قبل ذلك كله دين يأخذ بيد الحضارة ويدفع الأمم دفعاً إلى ميادين التمدن. وإن ديناً تبلغ دعوته إلى العلم ذلك الحد الذي سمعتموه لا يمكن أن يحول دون حضارة أو يعمل على عرقلة رقي، وتاريخه شاهد عدل على ذلك. فقد أجمع المؤرخون أن الإسلام أقام أكبر حضارة عرفها التاريخ، وأن الحضارة العربية الزاهرة لم تنهض إلا على سواعد الإسلام ودعائمه، وأن الحضارة التي أقامها كانت المعين الذي استقت منه الحضارة الغربية الحديثة.

قال غوستاف لوبون: «لقد كان للمدنية الإسلامية تأثير عظيم في العالم. وتم لها هذا التأثير بفضل العرب والعناصر المختلفة التي دانت بالإسلام، وبنفوذهم الأدبي هذبوا الشعوب البربرية التي قضت على الإمبراطورية الرومانية، وبتأثيرهم العقلي فتحوا لأوروبا عالم المعارف العلمية والأدبية والفلسفية، وهذا ما كانت تجهله وعلى ذلك كان العرب ممدنينا وأساتذتنا مدة ستمائة سنة».

الإسلام والتمتع بملذات الحياة:

الإسلام لا يحظر على الناس استعمال ما تميل إليه نفوسهم من متع الحياة الطيبة. ودستوره في ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ ؟﴾.

وإذا حرم من لذائذ الحياة شيئاً فذلك ليكبح جماح الشهوات، ويفرض على الإنسان حياة التوسط والاعتدال ودستوره في ذلك:

﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ۚ ﴾.

وليس الإسراف مقصوراً على التبذير المادي، بل هو شامل لكل تفريط في تناول شيء مرغوب.

فالخمر إسراف في تحصيل لذة السرور تصل إلى غيبوبة العقل.

والزنا إسراف في قضاء الشهوة يصل إلى تعريض الجسم للأمراض.

والقمار إسراف في جمع المال يبلغ حد الأثرة والشره والطمع؛ وقل مثل ذلك في كل ما حرمه الإسلام إنه إسراف وتفريط يضر بالفرد أو المجتمع

وما قامت شريعة إلا على رعايتهما والنظر في شؤونهما .

الإسلام والتيسير:

وليس في الإسلام ما يوقع في حرج أو يؤخر عن واجب .

﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ .

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ .

وما خُيِّر رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما. ولقد كره الإسلام التعمق في الدين والتشدد في العبادات، والغلو في التعبد وقال في ذلك :

«إن هذا الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا» .

الإسلام ورعاية مصلحة الجماعة:

مصلحة الجماعة هي أساس التشريع الإسلامي الخالد، ومن أنعم النظر في أبواب الفقه الإسلامي علم أن أكثرها لتحقيق المصلحة العامة كأبواب

الزكاة، والوقف، وإحياء الموات، والربا، والحدود، والجنايات.

وما تعارضت مصلحة الفرد مع مصلحة الجماعة إلا رجح الإسلام الثانية على الأولى، كما في هدم البيت المتداعي للسقوط، والأخذ منه للطريق العام، وأخذ الإمام شيئاً من أموال الناس إذا اقتضت المصلحة ذلك.

هذا تحليل للاعتراض الأول وبيان لما فيه من مخالفة للحق وبعد عن الصواب.



هل نهضتنا لا تتم إلا باطراح الدين كما فعلت أوروبا؟

إن ذلك الزعم القائل بأن أوروبا لم تنهض إلا يوم تحررت من ربقة الدين ورجاله، فلا ننهض إلا إذا سلكنا سبيلها هو زعم ناشىء من الجهل بطبيعة الإسلام أولاً، وقلة الإحاطة بموقف رجال الدين من العلم والعلماء في فجر نهضة أوروبا ثانياً.

طبيعة الإسلام كما سمعتموها الآن تختلف تمام الاختلاف عن طبيعة غيره من الأديان التي عافت خطى الحضارة، ورجال الدين الذين كان شعارهم كما جاء في دائرة معارف القرن التاسع عشر:

«أطفىء مصباح عقلك واعتقد وأنت أعمى».

والذين كانوا يحكمون على القائلين بكروية

الأرض ودورانها بالكفر والإحراق.

والذين كانوا ينفرون الناس من فلسفة أرسطو وتعاليم ابن رشد.

هؤلاء غير رجال الدين الذين كانوا يقررون للناس قوله تعالى:

﴿فَبَشِّرْ﴾.

وهم غير رجال الدين الذين كانوا يشرحون كروية الأرض ويقررونها في مساجدهم ويثبتونها في تفسير قرآنهم كما فعل البيضاوي والفخر الرازي. وهم غير رجال الدين الذين تأدبوا بآداب القرآن: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ ويعملون بوصية رسولهم: «الحكمة ضالة المؤمن يلتقطها أنى وجدها. خذ الحكمة ولا يضرك من أي وعاء خرجت».

لئن كان أولئك أخروا سير النهضة في أوروبا وقاوموا العلوم والفلسفة والآداب، فلقد كان هؤلاء حملة مشاعل الحضارة وحداة ركبها وأعلام قادتها.

هل الدعوة للإسلام دعوة إلى عصبية وتفرقة ممقوتة؟

أما أن تكون دعوتنا للإسلام باعث عداوة وتفرقة طائفية، فقد يكون ذلك معقولاً، لو أن طبيعة الإسلام طبيعة عدوان، ولو أن تعاليمه تثبت الكره لمخالفيه، وتحمل على عداوتهم، ولكن الإسلام دين حب وإخاء، يفرض في الناس جميعاً أخوة الإنسانية، فلا تمايز لأحد على أحد إلا بالعمل الصالح، والخدمة للمجتمع، وهو يوجب الإيمان بجميع الأنبياء السابقين، ويلزم حبهم وتقديسهم، وقد وضع لمعاملة غير المسلمين مبدأ لا أعتقد أن في الدنيا أسمى منه غاية أو أكرم عدالة، أو أوسع صدراً، وذلك هو قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن

دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾﴾.

الدين الذي يضع مثل هذا المبدأ، والدين الذي يقول: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّۚ﴾...

والدين الذي يقول: «الخلق كلهم عيال الله، وأحبهم إليه أنفعهم لعياله» هذا الدين ليس من طبيعته البغي ولا التفرقة ولا نشر العداوة والبغضاء، فإذا رأيتم في المنتسبين إليه من بغى واعتدى فذلك أثر الانحراف عن تعاليمه، والابتعاد عن السُّرى في ضوء أقماره ونجومه.

يقول بعض الناس: هذا حق، ولكن غير المسلمين يوجسون شراً من الدعوة للإسلام، ويسوؤهم أن ينهض المسلمون على أساس من دينهم وهدي نبيهم!..

ونحن نقول: ما ذنبنا في خوف لا مبرر له، وفي القلق من دعوة واضحة لا لبس فيها ولا إبهام؟..

إن دعوتنا محصورة في وسط أمة مسلمة لا تعدوها إلى سواها، تبغي إنهاضها على أساس عقيدتها القوية الصافية الخالية من البدع والضلالات؛ البعيدة عن روح الفوضى والمخاصمات. وهذه العقيدة تشتمل على ثلاث نواح:

العبادات ـ والآداب ـ والمعاملات

وليس في أخذ المسلمين بواحدة منها أي خطر على من سواهم.

أما العبادات فأثرها ظاهر في تقويم الأخلاق، وتهذيب النفوس، وتقوية الأجسام، وإعداد الفرد لحياة اجتماعية راقية قوية، فأي خطر ينشأ من ذلك على غير المسلمين؟!..

وأما الآداب، فهي من أقوى ما عرف التاريخ من نظم الأخلاق والسلوك.

آداب لا تصادم الغرائز ولا تسترسل مع الشهوات، وهي مع ذلك تحارب الضعف والكسل والإباحية والتحلل، وتنشر الثقة والعفة والأمانة في أعمال الناس وأقوالهم ونياتهم، فأي ضرر يلحق

بغير المسلمين إذا تخلق المسلمون بهذه الآداب؟ على أن هذه الأداب هي آداب قومية عامة لا تختص بالمسلمين فحسب، ولقد رأينا كيف كان أبناء هذه البلاد بتخلقون بأخلاق متشابهة، ويعيشون في جوّ واحد متشابه في الزي والمآكل والمعيشة وغيرها، حتى جاءت المدنية الحديثة، فأسرع إلى التعلق بقشورها فريق كبير من غير المسلمين، أفليست الدعوة إلى إحياء تلك الآداب الصالحة دعوة قومية جامعة؟ . .

وأما المعاملات فهي تشريع عالمي ينظم شؤون الحياة المختلفة على مبادىء من أرقى المبادىء التشريعية العالمية، تشريع يقرر عنه مؤتمر القانون المقارن المنعقد في لاهاي سنة ١٩٣٦ أنه:

١ ـ تشريع حي صالح للتطور.

٢ ـ تشريع عالمي من مصادر التشريع العام.

٣ ـ مستقل بذاته ليس مأخوذاً ولا مستمداً من غيره.

إذا عملنا بهذا التشريع الخالد في شؤوننا

العامة، فانتفع به أبناء هذه الأمة على اختلاف مللهم، فهل فيه شيء من الضرر على غير المسلمين الذين لم يتعرض دينهم لشأن من شؤون التشريع حتى استعاروا من الإسلام بعض أنظمته كنظام الإرث؟.

وإذا كانوا لا يرون من الغضاضة عليهم أن يأخذوا من الغرب تشريعه ونظمه، فهل من الغضاضة عليهم أن يأخذوا بتشريع الإسلام، وهو تشريع نما وترعرع في جو العروبة والشرق؟ أوليس الأخذ به، وهو تراث خالد من تراث الأمة العربية، ومظهر من مظاهر عبقرية علمائها ومجتهديها، أخذاً بأقوى آصرة تجمع شتات العرب اليوم، على هوى واحد، وهدف واحد؟..

ليس التعصب يا سادة، أن ندعو إلى مبدأ نعتقد فيه القوة والخير والكرامة لنا، ولكن التعصب أن يُنكر علينا اعتناق هذا المبدأ، والدعوة إليه، والاستفادة منه، وهو لا يسيء إلى أحد ولا يلحق بالمخالفين لنا ضرراً، ولا ينتقص لهم حقاً...

لا بل أنا أذهب إلى ما هو أبعد من هذا،

وأجهر بما هو أكثر صراحة: إن المسلمين من مجموع الأمة العربية يبلغون ٩٧٪.

فالدعوة التي تحقق إنهاض هذه الجمهرة الكبرى ورفعتهم وكرامتهم تحقق إنهاض البقية الباقية منهم.

ولقد حدثنا التاريخ، أن نصارى هذه البلاد، كانوا أرقى من نصارى أوروبا علماً وثقافة، وأعزّ منهم مقاماً ومكانة يوم كان المسلمون في هذه البلاد أقوياء علماء أعزاء، فلما انحط شأن المسلمين انحط شأن المسيحيين تبعاً لهم، وأصبحوا أدنى من مسيحيي الغرب في كل شأن من شؤونهم.

أفليس إذاً من مصلحتهم أن يكونوا معنا أقوياء أعزاء بدلاً من أن نظل نحن وإياهم مستذلين ضعفاء؟ وأليس من مصلحة هذه الأمة أن تسير الدعوة إلى الإسلام الصحيح سيراً طبيعياً لا يعترضه أحد ولا تتبرم به طائفة؟.

بعض ما نعمل له الآن:

أيها السادة: إذا كانت دعوتنا هي الإصلاح

على أساس الإسلام، فإن في مقدمة ما نعمل له الآن:

أولاً - تعميم التعليم وإصلاح برامجه ليكون وافياً برغائب الأمة، منسجماً مع حاجاتها.

ثانياً - إصلاح القوانين الحاضرة التي تزداد في ظلالها الجرائم، وترتكس الأخلاق وتضيع حقوق الناس.

ثالثاً - القضاء على مظاهر الفساد والتحلل، وبث الرجولة في نفوس الأمة، واتخاذ الطريق العملية لإنهاض مستوى الأخلاق العامة.

رابعاً - القضاء على مظاهر الظلم الاجتماعي، وإيصال العمال والفلاحين والفقراء إلى حقوقهم في حدود الإسلام العادل الرحيم.

خامساً - القضاء على مظاهر الضعف الجسمي والأمراض المنتشرة، بنشر الدعوة الصحية، وتأسيس النوادي الرياضية، والمستوصفات العامة، وتأليف فرق الفتوة، وما شابهها.

سادساً - رفع مستوى المرأة، خلقياً ودينياً

واجتماعياً لتكون صالحة للقيام بوظيفتها الطبيعية من تربية النشء وتنظيم الأسرة.

سابعاً - حياطة كيان الأمة من كل فساد، داخلي أو خارجي، ومحاربة الاستعمار في جميع صوره وأشكاله. وإن في مقدمة الفساد الخارجي، ومن أخطر أشكال الاستعمار الفكري هذه الدعوات التي تمتد جذورها إلى أمم أجنبية، وتستمد قوتها من معونة أجنبية، والتي ترمي إلى بث مبادىء لا تلتئم مع الإسلام ولا تتفق مع مصلحة الأمة، ولا تثمر إلا نشر الفوضى، وزعزعة العقيدة، وإماتة الشعور القومي والوطني في نفوس أبناء الجيل الجديد.

هذه الدعوات لا ننفك عن محاربتها في حدود الحجة والمنطق والقانون، وتحذير الأمة مما تنطوي عليه من أخطار لا نهاية لها، وفوضى لا غاية لشرورها وآثامها.

هذا أيها الإخوان بعض ما نعمل له، وليس كل ما نريد عمله، ولا كل ما يتضمنه برنامج حركتنا من خطط ومبادىء ترمي إلى الإصلاح والنهوض.

وما أحسب إلا أن دعوتنا بعد هذا الإيضاح والنقاش، قد اتضحت سبلها، وبانت مقاصدها، وتميزت عن غيرها بأنها تستمد قوتها من قوى الأمة الروحية والخلقية والفكرية، فهي إذاً أصدق اتجاه فكري في الشرق العربي الحديث وأقرب طريق للوصول بهذه الأمة إلى حياة كريمة تصل حاضرها بماضيها، وتستخرج دفائن العظمة والبطولة والسمو والكمال من نفوس أبنائها وبناتها، حتى ينظم التاريخ في أمجادها الحاضرة أناشيد الخلود يتغنى بها فم الزمان!

دعاء وإهابة:

أيها الشباب! لقد حدثتكم من قبل، حديث العقل والمنطق، وأنا أريد الآن أن أحدثكم حديث العاطفة والشعور.

أيها الشباب! إنكم ترون بأعينكم سيل الفساد قد عم كل ناحية من نواحي المجتمع. ولقد وثقتم أن إصلاحه لن يكون إلا عن أقرب الطرق وأجداها: عقيدة الأمة وماضيها، فاستفيدوا من عقيدتها ما تصلحون به أوضاعها وأخلاقها، واستفيدوا من

ماضيها ما تحيون به هممها وعزائمها. إن عقيدتكم زاخرة بالقوة، وإن ماضيكم حافل بالمجد، ومن أوتي المجد والقوة، ثم فرط فيهما كان أشقى الهالكين.

يا شباب! من للوطن غير سواعدكم تنهض به على تقوى من الله ورضوان؟ ومن للأمة غير صرخاتكم توقظها من رقدتها وتبث فيها روح اليقظة والعمل والحب والإحسان؟ ومن للأخلاق الفاسدة غير عزائمكم تدكّ معالمها، وتدرس آثارها، وترفع للفضيلة أعلاماً شامخة، حتى تفيض جنبات الوطن بالعفاف والنبل والسمو والأمان؟.

يا شباب! إن محمداً صلوات الله وسلامه عليه، كلل آباءكم بأكاليل المجد، وبوّأهم جنات النعيم، ودوَّن أسماءهم في أسفار البطولة والقيادة والنبوغ، فاتبعوا محمداً، فإنما تتبعون أعظم قواد الدنيا نجاحاً وحكمة وإخلاصاً. واجهروا بالإسلام فإنما تمثلون أنبل مبادىء الدعوات عدلاً ونظاماً ورحمةً وسلاماً.

أن يتهموكم بعد ذلك بالجمود فيا حبذا جمود

يبوىء الخلود، ويلحق عظمة الأبناء بعظمة الجدود!
وأن ينعتوكم بالرجعية، فأنعم بها من رجعية تطفىء النار، وتحمي الذمار، وتدفع العار، وترد كيد الأشرار، ودعاة الاستعمار!..

يا شباب! لقد وثقتم من الطريق فلا تترددوا، وأيقنتم بالغاية فلا تيأسوا، واطمأننتم إلى الكفاح فلا تنكصوا.

لا تعبأوا بلوم اللائمين! فالذين آمنوا إذا مروا باللغو مروا كراماً.

ولا تبالوا باستهزاء المستهزئين!: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

ولا تصدنكم عن العمل كثرة المتاعب! فما يصيبكم من نصب ولا تعب في سبيل الله إلا كتب لكم به عمل صالح.

ولا تضنوا في سبيل الحق بأموالكم ولا أنفسكم فإن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة.

ولا تشكوا بنجاح دعوتكم فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾.

اعملوا يا شباب ليردد فيكم التاريخ قول شاعركم العربي:

وما كان من خير أتوه فإنما تـوارثـه آبـاء آبـائـهـم قـبـل
وهل ينبت الخطي إلا وشيجه وتغرس إلا في منابتها النخل؟

وبعد: فهذا هو نص المحاضرة التي ألقيت في جمعية الشبان المسلمين بدمشق في شهر ربيع الثاني سنة ١٣٦٤، ويسرنا أن نسجل هنا أن فكرتنا أخذت تتضح في أذهان الجمهور، وتجد تأييداً من الأوساط الثقافية المخلصة، ومن البيئات التي كانت تتوجس خيفة من انتشار الفكرة الإسلامية الحديثة، حتى غدا خصومها بالأمس من أشد أنصارها اليوم، وذلك فضل من الله ومنة، بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق.

دمشق: رجب ١٣٦٤

الفهرس

كتب للمؤلف

١ ـ أحكام الصيام وفلسفته.
٢ ـ أخلاقنا الاجتماعية.
٣ ـ الاستشراق والمستشرقون.
٤ ـ السيرة النبوية دروس وعبر.
٥ ـ عظماؤنا في التاريخ.
٦ ـ المرأة بين الفقه والقانون.
٧ ـ من روائع حضارتنا.
٨ ـ هكذا علمتني الحياة.
٩ ـ القلائد من فرائد الفوائد.
١٠ ـ شرح قانون الأحوال الشخصية ١/٢.
١١ ـ نظام السلم والحرب في الإسلام.
١٢ ـ التكافل الاجتماعي في الإسلام.
١٣ ـ المرونة والتطور في التشريع الإسلامي.
١٤ ـ مشروعية الإرث وأحكامه في الإسلام.
١٥ ـ الدين والدولة في الإسلام.
١٦ ـ أصدق الاتجاهات الفكرية في الشرق العربي.
١٧ ـ السُنَّة ومكانتها في التشريع الإسلامي.
١٨ ـ الصراع بين العقل والقلب.
١٩ ـ جهادنا في فلسطين.
٢٠ ـ إسلامنا.
٢١ ـ آلام وآمال.
٢٢ ـ مقدمات حضارة الإسلام.